الفصل الثانى

وسائل الدعوة الإسلامية

١ – المسجد وأهميته فى الدعوة .

٢ – الخطابة وأثرها فى الدعوة .

٣ – الجهاد فى سبيل الله .

obeikandl.com

من وسائل الدعوة : المساجد

المسجد وأهميته فى الدعوة

مكانة المسجد فى الإسلام :

للمسجد مكانة عظيمة فى الإسلام يدل على ذلك مايلى :

١ – إن عمّاره ماديًّا ومعنويًّا هم صفوة خلق الله من الأنبياء والمرسلين ، واتباعهم من عباده المؤمنين ، فقد كان بانى الكعبة أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وابنه إسماعيل ، كما قال تعالى : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منّا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾[1] .

وقال تعالى عن عُمَّار سائر المساجد : ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾[2] .

ووعد سبحانه وتعالى من بنى له بيتا فى الأرض – أى مسجدا لله تعالى – أن يبنى له بيتا فى الجنـة ، كما فى حديث عثمان بن عفان (رضى

---

(١) البقرة الآيتان (١٢٧ و١٢٨) .

(٢) التوبة آية (١٨) .

الله عنه) قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « من بنى لله مسجدًا بنى الله له كهيئته فى الجنة»[1] .

٢ – ومما يدل على مكانتها شهود الملائكة لها ، والأمر بتنزيهها من الروائح الكريهة لئلا تتأذى بها الملائكة والمصلون ، كما فى حديث جابر – رضى الله عنه – قال : « نهى رسول الله ﷺ عن أكل البصل والكراث فغلبتنا الحاجة ، فأكلنا منها فقال : « من أكل من هذه الشجرة المنتنة ، فلا يقربنَّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس »[2] .

٣ – وتظهر مكانة المسجد فى الإسلام بجلاء من كون الرسول ﷺ لم يستقر به المقام عندما وصل إلى حىّ بنى عمرو بن عوف فى قباء حتى بدأ ببناء مسجد قباء ، وهو أول مسجد بنى فى المدينة .

وكذلك عندما واصل سيره إلى قلب المدينة (المسماة آنذاك بيثرب) كان أول ما قام به تخصيص أرض لبناء مسجده ، ثم الشروع فى بنائه ، لأن فى المسجد اتصالاً بالقوة الإلهية التى لا تقهر ، وبسلطانها الذى لا يغلب ، فالاتصال بالله – سبحانه – هو أساس سعادة الأمم وهدايتها وتوفيقها فى الدنيا والآخرة .

٤ – من المسجد ينطلق صوت المؤذن مدويًا فى كل حى من أحياء المسلمين خمس مرات فى اليوم والليلة فيستجيب له الناس فى كل أرجاء الأرض تاركين كل شىء وراءهم ليؤدوا لخالقهم ما فرضه عليهم

---

(١) متفق عليه ، وانظر شرح السنة للبغوى ٣٤٦/٢ .
(٢) مسلم ٣٩٤/١ .

فى بيـوت أذن أن ترفع ويذكـر فيه اسمه طمعًا فى رحمته ، ورغبة فى مرضاته .

وللمسلمين عيد أسبوعى – يوم الجمعة – يجتمع فيه أهل كل مدينة فى أكبر مساجدها بعد أن يغتسلوا ويتطيبوا ويرتدوا أجمل ثيابهم ، أفضلهم أجرًا من جاء مبكرًا إلى المسجد ، وذلك لحضور صلاة الجمعة ، والإنصات للخطبة قبل الصلاة ، ويستطيع المسلم بسماعه خطبة الجمعة أن يتعلم كثيرًا من أمور دينه ، مما يجعل خطبة الجمعة – وحدها – لو أحسن القيام بها – مدرسة مستمرة إلى يوم القيامة .

٥ – وجود المسجد على الهيئة التى أراد الله أن تكون له كما كان فى عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين يكون من أهم آثاره انتشار العلم بين المصلين وغيرهم ، لأن المصلى الذى يعتاد المساجد للعبادة والتعليم والذكر وقراءة القرآن ومدارسة أحكامه ، لا تمضى عليه فترة من عمره إلا وقد تعلم الكثير من أمور دينه ودنياه ، ثم إن المصلى المستفيد من حلقات المسجد يفيد غيره ، فرب الأسرة يعلم أسرته ما تعلمه ، والصديق يعلم صديقه ، والمسافر إلى البلدان الأخرى لتجارة أو غيرها ينشر ما تعلمه بين أهل ذلك البلد الذى نزل به ، وهكذا نجد العلم ينتشر فى كل أسرة وكل حى ، بل وكل بلد إذا أحسن استعمال المسجد فى وجوه الخير والعلم وقام الدعاة والأئمة بواجبهم خير قيام[1] .

---

(١) انظر : دور المسجد ص ١٠٠ .

والفرق بين تعليم المسجد ، وتعليم المدارس شاسع من وجوه متعددة :

الوجه الأول : أن التعليم فى المسجد يكتنفه جو عبادى يشعر المعلم فيه والمتعلم والسامع أنهم فى بيت من بيوت الله فيكونون أقرب إلى الإخلاص والتجرد والنية الحسنة ، لا يقصدون – فى الغالب – من التعلم والتعليم إلا وجه الله .

وأهدافهم هى التفقه فى الدين وأداء العمل على وجهه الصحيح والدعوة إلى الله ، والجهاد فى سبيله ، لا يرجون من وراء ذلك مغنمًا ولا جاهًا ولا منصبًا ، ولذلك تجد غزارة العلم وحفظه وإتقانه عند كثير من علماء المسجد فى أوقات قصيرة ، بخلاف طلاب المدارس ، فإنهم – فى الغالب – لا يصلون إلى مرتبة علماء المساجد فى ذلك ، والواقع التاريخى يشهد بذلك ، فهل خرجت المدارس والمعاهد والجامعات كالخلفاء الراشدين ومن شابههم ؟ وهل خرجت المدارس والمعاهد والجامعات كالأئمة المحدثين والفقهاء والنحويين ومن شابههم ؟

الفرق الثانى : أن التعليم فى المساجد أشمل حيث يدخل المسجد من شاء من العلماء المؤهلين ،ليعلم الناس ، كما أنه يدخله من شاء من المتعلمين أو المستمعين ، فيستفيد فى المسجد جم غفير ، بخلاف المدارس ، فلا يدخلها إلا عدد محدود من المعلمين والمتعلمين ، ولا يؤذن لمن يريد أن يتفقّه فى الدين بالتردد عليها ولذلك اضطرت الدول فى العصر الحديث إلى إيجاد مدارس لمحو الأمية ، وهى شبيهة بالمدارس الأخرى لا تفى بحاجة الناس كالمساجد ،فالمساجد جامعات شعبية صالحة للمتعلمين على جميع المستويات .

الفرق الثالث : أن علماء المساجد وطلابها أقرب إلى عامة الشعوب من طلاب المدارس والجامعات حيث تجد عامة الناس يقبلون على عالم المسجد وطلابه ، ويستفيدون منهم ، كما تجد عالم المسجد وطلابه يهتمون بعامة الناس فى التعليم والدعوة أكثر من غيرهم ولاشك أن الارتباط بين طلاب العلم وجمهور الشعب له مزاياه الكثيرة فى التعليم والدعوة والتوجيه .

أشار إلى هذه الفروق سماحة الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد – رحمه الله – فى محاضرة له ، وكان من طلبة المساجد وعلمائها ، ثم قال : « وهكذا تخرج من هذه المساجد أساطين العلم الأفاضل الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، وما هم عليه من الصلاح والتقوى ، وما قاموا به من جهود عظيمة ، احتسبوا أجرها عند الله فى الدعوة الإسلامية ونشر الثقافة الإسلامية ، هذه مؤلفاتهم فى مختلف الفنون : فى التفسير ، والحديث والفقه والتاريخ وعلوم الآلة ، وغيرها ، كلها تشهد لهم بما قدموا من علوم »[1] .

٦ – لقد كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مأوى للمحتاجين ، فكان به مكان يسمى الصُّفَّة، يسكن به من لاسكن له من الفقراء وكان رسول الله ﷺ يشركهم فيما يهدى إليه ، ويخصهم بالصدقة التى تأتيه ، وكان إذا قدم قوم عليه ولا مأوى لهم أنزلهم فى المسجد كما روى أنس – رضى الله عنه – وكان صغيرًا – قال : قدم رهط من عُكْل على

(١) انظر : مجلة رسالة المسجد التى تصدرها رابطة العالم الإسلامى العدد السادس – السنة السادسة ١٤٠٣هـ ص ١٥ وما بعدها (نقلاً عن دور المسجد) .

النبى ﷺ فكانوا فى الصُّفَّة ، وقال عبد الرحمن بن أبى بكر : كان أصحاب الصُّفَّة الفقراء ويوب لذلك الإمام البخارى ، فقال : « باب نوم الرجال فى المسجد »[1] .

ولأبى هريرة مع أهل الصفة قصة طريفة أنقلها بتمامها ، وهى تدل على سكن الفقراء فى المسجد أو ما يلحق به ، وعلى عناية الإمام بهم وفيها تدريب من الرسول ﷺ لأبى هريرة على الصبر والإيثار كما فيها مباركة الله تعالى لرسوله ﷺ فى الشىء القليل ، إذ يصبح كثيرًا .

قال رضى الله عنه : « والله الذى لا إله إلا هو ، إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ،وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذى يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليشبعنى ، فمر ولم يفعل ، ثم مرّ بى عمر ، فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليشبعنى ، فمرّ فلم يفعل ، ثم مرّ أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآنى ، وعرف ما فى نفسى وما فى وجهى ، ثم قال : « أبا هِرٍّ » قلت : لبيك يا رسول الله ، قال ﷺ : « إلحق » ومضى فتبعته فدخل فاستأذن ، فأذن لى فدخل فوجد لبنًا فى قدح ، فقال : « من أين هذا اللبن ؟ .. قالوا : أهداه لك فلان أو فلانة ، قال : « أبا هِرّ » قلت : لبيك يارسول الله ، قال : « إلحق إلى أهل الصفَّة ،فادعهم لى ، قال : وأهل الصُفَّة أضياف الإسلام ، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئًا وإذا

---

(١) البخارى ١١٣/١ .

أتته هدية ، أرسل إليهم وأصاب منها ، وأشركهم فيها فساءنى ذلك ، فقلت : وما هذا اللبن فى أهل الصفة ، كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أقوى بها ، فإذا جاء أمرنى فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغهم من هذا اللبن ؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بُدٌّ ، فأتيتهم فدعوتهم فقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم ، وأخذوا مجالسهم من البيت ، قال : « يا أبا هِرٍّ » قلت :لبيك يا رسول الله ، قال : « خذ فأعطهم قال : فأخذت القدح ، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب ، حتى يروى ثم يرد علىّ القدح ، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يرد علىّ القدح ، فيشرب حتى يروى ثم يردّ علىّ القدح حتى انتهيت إلى النبى ﷺ وقد روى القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلىّ فتبسم فقال : « يا أبا هِر » قلت :لبيك يا رسول الله قال : « بقيت أنا وأنت » قلت : صدقت يارسول الله ، قال : « اقعد فاشرب » فقعدت فشربت ، فقال « اشرب » فشربت فمازال يقول : « اشرب » حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا ، قال : « فأرنى » فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة »[1] .

٧ – ولقد كان مسجد رسول الله لله يشهد دعوة المصطفى ﷺ أصحابه فيه لحثهم على الجهاد فى سبيل الله ، ومن المسجد ينطلقون ، وفيه يرتبون بل لقد ترك بعض جنود الإسلام يتدربون فيه على السلاح ، وهو ينظر إليهم ، بل أذن لزوجه عائشة أن تنظر إليهم

---

(١) البخارى (١٧٩/٧ – ١٨٠) .

من خلفه ، وعندما رآهم عمر انتهرهم وحصبهم فأمره الرسول ﷺ أن يتركهم وفى ذلك إشارة منه ﷺ إلى الرد على من زعم أن المسجد لا يصلح إلا للصلاة ونحوها من شعائر العبادات .

فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه ، قال : بينما الحبشة يعلبون عند رسول الله ﷺ بحرابهم ، إذ دخل عمر بن الخطاب فأهوى إلى الحَصْبَاء، فحصبَهم بها، فقال له رسول الله ﷺ : « دعهم يا عمر »[1] .

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله – « واللعب بالحراب ليس لعبًا مجردًا . بل فيه تدريب الشجعان على مواقع الحروب والاستعداد للعدو ، وقال المهلب :المسجد موضع لأمر جماعة المسلمين ، فما كان من الأعمال يجمع منفعة الدين وأهله جاز فيه »[2] .

وهكذا كان للمسجد فى صدر الإسلام وظائف متعددة وخدمات جليلة ، مما كان له دور فى رقى المجتمع الإسلامى ورفعته .. يقول أستاذنا المرحوم الدكتور محمد أبو شهبة فى هذا الصدد :

« وفى الحق أن المساجد فى صدر الإسلام ولاسيما المسجد النبوى كانت تؤدى خدمات دينية وعلمية واجتماعية وصحية وحربية، فكانت متعبدات يؤدى فيها المسلمون شعائر دينهم وكانت تقوم مقام المعاهد والجامعات فى التربية والتعليم والتهذيب ، ومقام الجمعيات الخيرية فى جمع الصدقات والمساعدات والتعاون على البر والخير .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم ، وهو فى جامع الأصول ١٠/٧٥٤-٧٥٦ (فحصبهم) أى : رماهم بالحصباء ، وهى الحصى .

(٢) فتح البارى ١/٥٤٩ .

وكانت تقوم مقام الملاجىء والمبرات ، يلجأ إليها الفقراء ممن لا مال لهم ولا دار، فيجدون فيها المسكن والمأكل والمشرب، كما كان الحال فى أهل الصفة أضياف الله وأضياف الإسلام .

وكانت منتديات يجتمع فيها المسلمون فيتآلفون ويتحابون ويتشاورون فى مصالحهم الدينية والدنيوية ويبرمون ما يرتئون . وكانت تصنع بالمسجد النبوى السهام وآلات الجهاد ، وتنصب به الخيام يستقبل فيها جرحى الحروب فيمرضون ويعالجون .

وكان يجتمع به بعض المسلمين فيتمرنون على فنون الحروب والقتال »[1] .

فعلى المسلمين أن يعيدوا للمسجد مكانته اللائقة به ووظائفه التى قام بها فى صدر الإسلام .

لقد هجرت المساجد وانصرف الناس عنها عدا قلة من كبار السن يتفرقون فى جنباتها هنا وهناك ولعل السبب فى ذلك هو الدعاة إلى الله ، هؤلاء الذين انصرفوا عن رسالتهم وغدت دعوتهم فى مقابل ما يتقاضونه من راتب شهرى ، بل ليتهم أعطوا المساجد فى مقابل ما يأخذون وليتهم راقبوا الله تعالى فى أعمالهم .

لقد اقتصر أكثر الخطباء والأئمة على خطبة الجمعة فحسب ، نظرًا لكثرة الحاضرين فيها ، وما يسفر عنها من ذيوع صيت الخطيب وشهرته بين الناس ، ولو كانت الدعوة خالصة لله تعالى والدافع إليها هو الدعوة

---

(١) د . محمد أبو شهبة : السيرة النبوية ٢/ ١٨ (دار القلم – دمشق) . .

نفسها لوجدنا الأئمة والخطباء يحرصون على دروس العلم فى مساجدهم التى يشرفون عليها ما بين المغرب والعشاء يشرحون فيها الفقه والتفسير والحديث وسيرة النبى ﷺ ، وبذلك تعود للمساجد نشاطها ورسالتها التى كانت لها فى العصور الإسلامية الزاهرة ، وبذلك يجد طلاب العلم دروس العلم ميسرة مبذولة لطلابها ، وفى ذلك خير – أيضًا – للدعاة أنفسهم حيث يتجدد العلم لديهم و تزداد حصيلة المعرفة عندهم يومًا بعد يوم لأن حياة العلم مذاكرته – كما يقولون .

لقد أصبحنا الآن – ولا حول ولا قوة إلا بالله – ندخل مساجد القاهرة – وغيرها – على كثرتها فلا نجد داعية جلس لقراءة العلم وتدريسه لطلابه والراغبين فيه – على الرغم من أن عملهم الرسمى يحتم عليهم ذلك ويلزمهم به – و تسأل عن الأئمة والوعاظ فلا تجدهم إلا ساعة صلاة الجمعة يأتون لإلقاء خطبة لم يبذلوا وقتًا معقولاً فى تحضيرها وإعدادها ، أما عن الأخطاء اللغوية وسطحية الموضوعات وعدم التزام الخطيب بموضوع واحد ، وغير ذلك من سلبيات الخطابة فحدث ولا حرج .

فلا غرو أن وجدت فجوة واسعة بين الشباب وعلمائهم فاتخذ الشباب بعضهم بعضًا شيوخًا وأئمة يسألونهم فى أدق مسائل العلم وأخطرها ، فيجيبونهم بغير علم فضلوا وأضلوا ، ونشأت الجماعات التى تقوم على التكفير والبعد عن منهج الدعوة الصحيح الذى كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

ألا فليتق الدعاة إلى الله ربهم فى أداء رسالتهم وليجعلوا المسجد

مركز إشعاع دينى وفكرى وبذلك تعود للمسجد مكانته التى كان عليها فى صدر الإسلام .

٨ – بقى أن نبين دور المسجد وأهميته فى التعارف والأخوة الإسلامية التى تعتبر ضرورة من ضرورات المعاملات بين الناس ، فالجار قد يحتاج إلى جاره ، ولا يمكن أن يتعامل معه إلا إذا تعارفا وكل واحد من الناس قد يحتاج إلى غيره فكيف يتعامل معه بدون تعارف بينهما ؟

قال تعالى : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[1] .

وإن المسجد لكفيل بإيجاد تعارف أخوى إيمانى لا ينسى ، ذلك أن المصلين فى الحى الواحد يلتقون فى المسجد خمس مرات فى اليوم والليلة ، فيصبح أهل الحى بعد فترة قصيرة كلهم متعارفين بسبب تكرار رؤية بعضهم بعضا ومصافحة بعضهم بعضًا ، ولقائهم فى حلقات الدرس عند العلماء ، وهكذا .

ولكن التعارف بين المسلمين ليس هو مجرد معرفة اسم الشخص واسم أبيه ولقبه ووظيفته فقط ، وإنما المقصود منه ما هو أهم من ذلك ، وهو تقوية أواصر الأخوة الإيمانية التى يترتب عليها العمل بكل ما يقويها من المحبة والتزاور والتواصل وعيادة المريض ، وإجابة الدعوة ، وإعانة المحتاج والضعيف وإفشاء السلام ، وطلاقة الوجه وطيب الكلمة ، والتواضع وقبول الحق ، والعفو والسماحة ودفع السيئة بالتى هى أحسن ، والإيثار وحسن الظن ، ونصر المظلوم ، وستر

---

(١) الحجرات ١٣ .

المسلم إذا وجدت منه هفوة ، وتعليم الجاهل ، والإحسان إلى الجار ، وأداء كل الحقوق إلى أهلها ، والنصح لكل مسلم .

وكذلك تجنب كل ما يضعف الأخوة الإيمانية من ظلم وحسد ، واحتقار وسخرية ، وغيبة ونميمة ، وهجر وقطيعة ، وفعل ما يثير الشك والقلق عند أخيه المسلم ، ومنافسة على بعض أمور الدنيا كالبيع على البيع ، والخطبة على الخطبة ، والغش والكذب .

ولقد كانت هذه المعانى العظيمة التى هى الأخوة الإيمانية وتعاطى ما يقويها ، وتجنب ما يضعفها موجودة فى أعلى صورها عندما كان المسجد موجودًا فى أعلى صورة له ، فى عهد رسول الله ﷺ وعهد خلفائه الراشدين وقد ربط الرسول ﷺ أول أخوة وجدت على ظهر الأرض وهى أخوة المهاجرين والأنصار الذين أظلهم مسجده الشريف ، وربطت أخوتهم الشهادتان ووحدتهم راية الجهاد فى سبيل الله حتى لقد عزم أخ من الأنصار أن يتنازل لأخيه من المهاجرين عن شَطْر ماله وإحدى زوجتيه يطلقها ، فتعتد فيتزوجها ، فما كان من المهاجر إلا أن قال للأنصارى : بارك الله لك فى أهلك ومالك[1] .

هكذا كان أهل المسجد ، فأين تعارف المسلمين اليوم ؟ إن باب دار الجار بجانب باب دار جاره ، أو أمامه ، يخرجان فى وقت واحد لأعمالهما ، ويدخلان فى وقت واحد إلى منزلهما وقد يجمعهما مصعد واحد نازلين وطالعين ، وقد لا يسلم أحدهما على الآخر ، وقد يسلم فلا يردّ الآخر ، وقد يردّ وهو مُدْبِرٌ لا يرى أخاه ابتسامته وقد يموت

---

(١) البخارى ٢٢٢/٤ .

أحدهما ويدفن وهو لا يدرى عنه شيئًا وقد يكونان فى مؤسسة واحدة فى العمل ، فأين تعارف المسجد يا أمة محمد ؟ ![1] .

٩ – ومن حسنات المسجد وآثاره الجليلة القضاء على الفواحش أو انحسارها فى المجتمع الإسلامى .

فالذين يعتادون المساجد ويقيمون الصلاة يكرهون الكفر والفسوق والعصيان وتنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر ، والبغى ، قال الله تعالى : ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[2] .

قال الإمام القرطبى : يريد أن الصلوات الخمس هى التى تكفر ما بينها من الذنوب ؛ كما قال عليه السلام : « أرأيتم لو أنّ نهرًا بباب أحدكم ، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء » قالوا : لا يبقى من درنه شيء قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا » خرجه الترمذى من حديث أبى هريرة ، وقال فيه : حديث حسن صحيح .. ثم أخبر حكمًا منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر ، وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة والصلاة تشغل كل بدن المصلى ، فإذا دخل المصلى فى محرابه وخشع وأخبت لربه وادكر أنه واقف بين يديه ، وأنه مطلع عليه ويراه ، صلحت لذلك نفسه وتذللت ، وخامرها ارتقاب الله تعالى وظهرت على جوارحه هيبتها ،

---

(١) دور المسجد ص ١١١ .

(٢) سورة العنكبوت :الآية (٤٥) .

ولم يكد يفتر من ذلك ، حتى تُظَلِلهُ صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة »[1] .

ولو تصفح الباحث صفحات التاريخ لوجد أن العصور التى كانت للمساجد فيها مكانتها كانت المنكرات قليلة بمقدار ما ترتفع تلك المكانة ، وأن العصور التى قلت فيها هيبة المسجد فى نفوس الناس كثرت فيها المنكرات بمقدار قلة هيبة المسجد .

ثم لو عملت إحصاءات دقيقة عادلة فى كل عصر لوجد أن الحريص على صلاة الجماعة فى المسجد أقل ارتكابا للجرائم والمعاصى وأن الذين لا يحافظون على الصلاة فى الجماعة هم أكثر جرائم من غيرهم .

لذلك نقول : إن من أهم آثار المسجد فى المجتمع هو القضاء على الفاحشة أو التقليل منها[2] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢) دور المسجد ١١٧ (بتصرف) .

من وسائل الدعوة

الخطابة

الخطابة وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله – سبحانه – وتبليغ هدايات الله للعالمين ، وفى هذا المبحث أود أن أضع بين يدى الدعاة إلى الله – تعالى – بعض النصائح والإرشادات لتحسين خطبة الجمعة فى عصر قل فيه الخطباء الأكفاء الذين يعرفون علل مجتمعاتهم ويعالجونها بفقه ودراية .

ونبدأ حديثنا ببيان مواصفات الخطيب الناجح فنقول – وبالله التوفيق– : لخطيب الجمعة صفات ومؤهلات أهمها :

١ – العلم وسعة الاطلاع :

إن الخطيب يعلم الناس ويرشدهم إلى الخير ، فينبغى أن يكون عالما بأمور الدين واسع الاطلاع حتى يجيب على تساؤلاتهم ويقدم الحلول لمشكلاتهم ، ومن المعلوم أن فاقد الشىء لا يعطيه وكل إناء ينضح بالذى فيه[1] فإذا كان الخطيب قليل البضاعة من العلم ابتعد عنه الناس ، لأن الفقر العلمى يزرى بأهله .

---

(١) إرشادات لتحسين الخطبة ص ١٦ .

وسوف نفصل فى موضع آخر العلوم التى يجب على الخطيب أن يتقنها ويكون فاقهًا لها .

٢ – الالتزام بأحكام الإسلام والعمل بما يقول :

إن الناس لهم عقول يفكرون بها ولهم أعين يبصرون بها ولهم آذان يسمعون بها ، ولهم ألسنة يتكلمون بها ، فإذا رأوا خطيب الجمعة يدعو إلى خلق ولا يتحلى به وينهى عن منكر ولا يكف عنه[١] ، فإن كلامه يفقد أثره فى الناس مهما كانت بلاغته وفصاحته .

وقد عاب القرآن الكريم على أقوام يأمرون غيرهم بالبر والخير ولا يفعلونه فقال – سبحانه – : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾[٢] وقال ﷺ : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه[٣] فيدور كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بل كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه »[٤] .

ورحم الله أبا الأسود الدؤلىّ حين قال :

لا تنه عن خلقٍ وتأتى مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وَعَظْتَ وُيقْتَدَى ... بالعلم منك وينفع التعليم[٥]

---

(١) السابق .
(٢) البقرة الآية ٤٤ .
(٣) أى تخرج أمعاؤه .
(٤) مختصر صحيح مسلم المنذرى ص ٣٣٥ .
(٥) ابن حزم : الأخلاق والسير ٢٥٨ و٢٥٩ .

كذلك ينبغى للخطيب أن يبتعد عن الكبائر التى تشوه السيرة والسلوك، والصغائر التى تسقط المروءة والهيبة لأن الخطيب المؤثر هو صاحب السيرة العطرة والتاريخ المشرق الذى لا يرى الناس فيه موقف خيانة أو نفاق أو تعاون مع الظلمة المجرمين خصوصًا وأن مواقف الضعف والتردى للخطباء تظل عالقة فى أذهان الناس ويصعب عليهم محوها .

فعلى الخطباء والدعاة أن يحرصوا على أن يكون ماضيهم وحاضرهم مشرقًا مشرِّفًا حتى يستجيب الناس لنصائحهم وينتفعوا من وعظهم .

٣ – الجرأة والشجاعة :

وينبغى للخطيب أن يكون شجاعًا فى قول الحق جريئًا فى عرضه لقضايا الناس ومشكلات الأمة ، فلا يهاب حاكمًا ظالمًا ولا وزيرًا مستبدًا .. وليذكر دائمًا قول النبى ﷺ : « إن أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ولا نقصد بالشجاعة أن يكون الخطيب متهورًا فاحشًا يرسل الكلام بدون تأمل أو تفكير ، إنما الذى أقصده أن يعرض الخطيب قضايا الإسلام بقوة وشجاعة واستمساك بالحق الذى يدعو إليه دون أن تصدر منه عبارة فاحشة ، أو كلمة جارحة أو إساءة إلى أحد فإن المنابر ليست مكانًا لسب الناس وفضيحتهم على الملأ ، وتلك هى الحكمة التى يهبها الله لمن يحب من عباده ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة : الآية (٢٦٩) .

٤ ـ الإخلاص فى القول والعمل :

يجب على الخطيب أن يروض نفسه على العمل لله ونصرة دينه والحرص على مرضاة ربه ، وأن يكون كل حركة يتحركها وكل كلمة ينطق بها رغبة فى إعلاء دين الله – سبحانه – دون نظر إلى مدح مادح أو قدح قادح ، والخطباء هم أول الناس إدراكًا أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه وابتغاء مرضاته ، أما الخطباء الذين يحرصون على مدح الجماهير لهم أو ثناء الناس عليهم ، فقد حرموا أنفسهم من ثواب الله يوم القيامة، ويا لها من خسارة وحسرة أن يضيع الخطيب أوقاته وشبابه وعمره وهو يعمل للناس لا لله ، ويخرب آخرته لأجل دنياه ، إنه يأتى يوم القيامة فلا يجد شيئًا مما عمله ، لقد أخذ أجره فى الدنيا وثوابه من الناس !! ألم يكن غرضه أن تهتف الجماهير من حوله : ما أعظم هذا وما أفصحه وأبلغه ؟ وقد قالت الجماهير ذلك ، فعلام ينتظر الثواب فى الآخرة ؟ فيالها من موعظة لو صادفت من القلوب حياة !!

٥ – قناعة الخطيب بصدق ما يدعو الناس إليه :

لا يؤثر فى السامعين إلا المتأثر ، ولا يثير الحماسة فى قلوب السامعين إلا من امتلأ حماسة فيما يدعو إليه ، واعتقادًا بصدقه ، لأن ما يخرج من القلب يدخل القلوب من غير استئذان[1] .

---

(١) محمد أبو زهرة : الخطابة ٥٧ .

٦ – قوة الشخصية :

والمراد بقوة الشخصية فى الخطيب أن يتمتع بقوة تكسبه هيبة واحترامًا فى نفوس الناس ، تحملهم على توقيره وإجلاله فلا يجترئ عليه سفيه ولا أحمق .

ولهذا ينبغى أن يكون جادًّا بعيدًا عن المزاح والعبث ، الذى يجعل الناس يستخفون به ويسخرون منه .

إن الخطيب حين يكون خفيفًا عابثًا ماجنًا ثرثارًا متساهلاً فى أمور ينبغى أن يكون جادًا فيها يسقط من عيون الناس وتزول عنه كل هالة وهيبة كانت له فى نفوسهم قبل أن يعلموا حقيقته .

هذا ومما يتنافى مع قوة الشخصية كثرة الحركات من الخطيب على المنبر بلا موجب ، وخاصة العبث بلحيته وكوفيته بشكل يلفت نظر المصلين ويجعلهم يستهجنون هذا منه[1] .

٧ – مخالطة المصلين والتعرف على أحوالهم :

ينبغى على الخطيب أن يخالط المصلين ، ويتعرف على أحوالهم ، حتى يكون على بينة مما يدور فى المجتمع ، فإذا جاء يوم الجمعة كان ملمًّا بالأحداث ، وبالأهم فالمهم منها ، لأن خطبة الجمعة فرصة يجتمع المسلمون لسماعها وينصتون للخطيب فيها إنصاتا لا يوجد فى سواها وقد روى جابر رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ

---

(١) إرشادات ص ٢٦ .

إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ويقرُنُ بين أصبَعيه : السبابة والوسطى ، ويقول : « أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ . وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة »[1] .

إن الإمام الذى لا يختلط بالمصلين فى المسجد وخارجه ، ولا يسأل عن أحوالهم ، وما يطرأ لهم ، لا يقدر على إفادتهم ، لأنه سيتحدث إلى الناس فى أمور هُمْ أحوج إلى غيرها منها ، وفى ذلك خسارة على الناس أى خسارة وفوات لوقت من أثمن الأوقات لبيان ما أنزل الله للناس ، وكذلك الخطيب العاجز عن التعبير عما فى نفسه ، أو الذى يميت المعانى بألفاظه الميتة يعتبر نِيرًا على رقاب المصلين يجب أن يُنحى ليحل محله الخطيب الكفء الذى يفيد المصلين والمستمعين والواقع المشاهد الآن يؤيد ذلك ، فإن الناس يتسابقون إلى المسجد الذى يكون خطيبه مؤثرًا مهتمًا بأحوال الناس ، وما يحدث لهم فى أمور دينهم ودنياهم ، يتركون المساجد القريبة منهم ، ويذهبون إلى المسجد الأبعد من أجل ذلك ، وكأنهم يقولون بلسان حالهم للخطيب غير المؤثر : ضع نفسك فى مكانك فردًا فى صفوف المصلين ودع المنبر لأهله .

ومن أعجب الأمور ما يحصل فى بعض المساجد من التزام بعض الخطباء بقراءة خطبة الجمعة فى كتب أكل عليها الدهر وشرب حتى لقد بلغنى أن بعض الخطباء لا زال يدعو ببعض الدعاء الوارد فى

---

(١) مختصر صحيح مسلم ، حديث رقم : (٤١٠) .

الخطبة الثانية فى بعض الكتب للسلطان ابن السلطان خليفة المسلمين فى استانبول[1] .

٨ – نظافة الخطيب وجمال هندامه :

ينبغى أن يكون الخطيب نظيفًا فى ملبسه ، جميلاً فى مظهره ، يأتى إلى الجمعة وقد اغتسل وتطيب وارتدى أجمل ثيابه ، حتى تنشرح صدور المصلين لرؤيته وتسر نفوسهم لطيب رائحته ، وقد كان لرسولنا ﷺ بردة يرتديها يوم الجمعة وإذا كان الرسول ﷺ أمر المسلمين بالغسل يوم الجمعة فخطيبهم وإمامهم من باب أولى ، روى الإمام البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » .

أليس مما يؤلم النفس أن يأتى خطيب الجمعة بثياب رثة قد انتشرت بقع الزيت والعرق عليها وأحاطت بها من كل جانب ؟ إن هذا المنظر لو شوهد على إنسان عادى لنفرت منه النفس فكيف بخطيب الجمعة وإمامها ؟ !

إن هذا الخطيب – غالبا – ما يزهد الناس فى قوله ولا يكترثون لوعظه لأنه هان على نفسه فهان على الناس وانفضوا من حوله .

٩ – صوت الخطيب :

ينبغى على الخطيب أن تكون نبرات صوته مصورة للمعانى ولا تكون على وتيرة واحدة ، لأن هذا يبعث على السآمة والملل عند السامعين وربما أدّى إلى النعاس عند بعض الناس .

---

(١) دور المسجد ٩٧ .

كذلك يجعل صوته مناسبا لسعة المكان ولعدد السامعين فلا ينخفض حتى يصير فى آذانهم همسًا ولا يعلو حتى يكون صياحًا وعند الابتداء يتدىء منخفضًا ثم يعلو شيئًا فشيئًا ، كما يجب على الخطيب أن يوازن بين طاقته ، وبين الزمن الذى تستغرقه خطبته والمجهود الصوتى الذى يجب بذله ، وليجعل هذين على قدر تلك ، وإلا أصابه الإعياء والتعب قبل الوصول إلى غايته »[1] .

مواصفات الخطبة الناجحة

إن الخطبة الناجحة هى التى تحقق الهدف أو الأهداف المرجوة منها ولهذه الخطبة مواصفات أهمها :

١ – وحدة الموضوع :

الخطيب الناجح هو الذى يكون حديثه فى الخطبة حول موضوع واحد محدد – فقط – دون التشتت فى موضوعات مختلفة حتى يخرج السامع بفكرة واضحة عن الموضوع المطروح ، فتحدث الفائدة المرتقبة وتؤتى الخطبة ثمارها المرجوة ، أما الخطيب الذى لا تعرف لخطبته موضوعًا أو يتحدث عن موضوعات متعددة فتراه يخرج من موضوع ليدخل فى موضوع آخر وقد لا يكون بين الموضوعات المطروحة صلة أو توجد صلة واهية ، هذا الخطيب وأمثاله – فاشل فى مهمته ، غير موفق فى رسالته لأنه لن يستطيع أن يوفى هذه الموضوعات حقها من

(١) أبو زهرة : الخطابة ١٤٩ .

البحث فتأتى خطبته مشوشة مبتسرة سطحية تبعث فى نفوس السامعين الضيق والازدراء .

٢ – لغة الخطبة :

من الخير للخطيب أن يلتزم فى حديثه باللغة العربية الفصحى ، وأن يبتعد كل البعد عن اللهجات العامية والأساليب المستهجنة ، كذلك ينبغى أن يحرص على الأساليب السهلة المفهومة التى تخلو من المفردات الغريبة ، والعبارات التى يصعب فهمها على جمهور السامعين ، فإذا كان فى حديثه بيت شعر أو نص فيه بعض الكلمات الغريبة فعليه أن يشرحها حتى تكتمل الفائدة للحاضرين .

٣ – البعد عن إثارة الخلافات بين الناس :

الخطيب العاقل هو الذى يجمع ولا يفرق ، فتكون خطبته بعيدة عن مواطن الفرقة والخلاف وإثارة الفتن بين المسلمين ، ومن آيات عدم توفيق الخطيب أن يتعصب لمذهب فقهى معين ، ويسفه آراء المخالفين ويتهجم عليهم .كما ينبغى أن تخلو الخطبة من إثارة خلاف بين فريقين من أهل الحى أو القرية ، مما يجعل الفتنة ترفع رأسها من جديد ، والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها .

ومهما يكن من أمر ، فالخطيب الناجح هو الذى تأتى كلماته ومواعظه تهدئ ثائرة الثائرين ، وتصلح بين المتخاصمين وتوحد وتجمع بين المختلفين ، وإذا ظهرت فتنة عمل على القضاء عليها فى مهدها حتى تعود الأخوة والألفة بين جميع المصلين .

٤ – أن تكون الخطبة مرتبطة ارتباطًا وثيقا بحياة الناس :

فالخطيب الناجح هو الذى تدور خطبته حول مشاكل الناس وآمالهم وآلامهم ، حتى لا يشعر المصلون أنهم فى واد والخطيب فى واد آخر ، فمن العبث أن يتحدث خطيب القرية عن التبرج وآثاره ، أو الترف وخطره ، أو يأتى فى المدينة ويتحدث عن الرفق بالحيوان !! فليعلم الخطباء أن لكل مقام مقالا ، ومن عوامل النجاح –بلا ريب– مراعاة مقتضى الحال .

٥ – مادة الخطبة العلمية :

ينبغى أن تكون الخطبة عميقة شاملة لمعلومات بعضها – على الأقل – جديد على السامعين ، بحيث يخرج المصلى من المسجد وقد تزود من الخير ، واستزاد من العلم غذاء لعقله وروحه .. وتكون الخطبة كذلك نافعة إذا أحسن صاحبها إعدادها ، وبذل جهدًا فى تحضيرها .

ويحسن أن يعتمد الخطيب على الآثار المعتمدة الصحيحة ويبتعد عن الأخبار الواهية الضعيفة ، لأن الجماهير إذا علمت أن فلانًا من الخطباء غير دقيق فى أخباره ، فقدت الثقة فى كلامه ولو كان فى بعض الأحيان صادقًا .

٦ – قصر الخطبة :

من عوامل نجاح الخطيب أن تكون خطبته قصيرة ، لأن طول الكلام ينسى بعضه بعضًا ، وأعتقد أن الخطبة المعتدلة ينبغى ألا تزيد على عشرين دقيقة فى الخطبة الأولى وعن خمس دقائق فى الخطبة الثانية .

وأعتقد أن هذا قدر يستطيع أن يقول فيه الخطيب الشيء الكثير ، ولو استعرضنا خطب الجمعة للرسول ﷺ وخطب الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم لوجدناها لا تزيد عن المدة التى قدرناها .

obeikandl.com

obeikandl.com

كيفية إعداد الخطبة وتحضيرها

الخطيب الناجح هو الذى يعد خطبته ويحسن تحضيرها ، وطرق التحضير كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ – من الخطباء من يكتفى فى تحضيره بدراسة الموضوع دراسة تامة ، ثم جمع عناصره فى خاطره ، وترتيبها بينه وبين نفسه ويستحضر الألفاظ اللائقة بالمقام ، والعبارات الجديرة بالموضوع ، وهذه طريقة لا يتبعها إلا المتمرن على المواقف الخطابية[1] .

٢ – ومن الخطباء من يدرس الموضوع ويهيىء معانى الخطبة ، ويرتبها ترتيبا حسنا ثم يكتب عناصرها وأجزاءها فى مذكرة يستصحبها عند الخطبة لتكون مرجعًا له وضابطًا وليحفظ المعانى والأفكار من أن تضيع من الذاكرة ، وهذه الطريقة لا يتجه إليها إلا الخطباء الذين مرنوا على القول ، وأصبحت لهم طرق خاصة فى الإلقاء وتمتاز هذه الطريقة بأنها تفيد ضعيف الذاكرة ، وتفيد أيضًا إذا كانت الخطبة طويلة جمعًا لأشتاتها ، ولكيلا يقع فى التكرار الممل .

٣ – ومن الخطباء من يطلع على الموضوع ، ويدرسه بعناية ، ثم يتكلم فيه بينه وبين نفسه بصوت مرتفع فى غرفة قد انفرد فيها ، أو فى مكان خلوى ، أو يتكلم على بعض الناس .

---

(١) أبو زهرة : الخطابة ١٣٩ .

٤ – ومن الخطباء من يكتب الخطبة ويتحرى فى الكتابة أبلغ الأساليب التى توصله إلى غايته .. وبعد الكتابة يقرأ ما كتب مرارًا وينقحه فى كل مرة . وبهذه القراءة – التى يتحرى فيها جودة الإلقاء وحسن النطق – تعلق معانى الخطبة بذاكرته ، ويحفظ كثيرًا من ألفاظها وعباراتها .

٥ – ومن الخطباء من يكتبون خطبهم ، ثم يحفظونها حفظًا تامًا ، ومنهم من يتحلل أحيانًا مما حفظ ، إن وجد المقام يدفعه إلى غيره ومنهم من يكتب ويحفظ بدون أن يغير شيئًا وتلك الطريقة يتبعها أكثر المبتدئين فى الخطابة .

٦ – ومن الناس من يكتب الخطبة ثم يلقيها بالقراءة فى القرطاس الذى كتبها فيه ، وأكثر المحاضرين فى موضوعات علمية فى مصر على هذه الطريقة . ويحسن لمن يسلك ذلك المسلك سواء أكان خطيبًا أم محاضرًا أن يقرأ ما كتب قراءة جيدة قبل إلقائه ، وعند الإلقاء يجتهد فى أن يلقى بعض المحاضرة أو الخطبة من غير المكتوب ، ليكون فى ذلك تجديد فى الإلقاء ، وأن يكون فى قراءته مشرفًا على السامعين بنظره وقتًا بعد آخر ، وذلك يتيسر له بالقراءة الجيدة المكررة قبل الإلقاء .

والطريقة المثلى لطالب الخطابة :

أن يبتدئ بكتابة الخطبة وحفظها وإلقائها كما حفظ ، ثم يأخذ نفسه بالتغيير شيئًا فشيئًا فيما حفظ حتى إذا قوى فى الخطابة وتقدم فى المران عليها كتب الخطبة وعنى بأن تعلق كل معانيها بقلبه وأكثر ألفاظها

بذاكرته ، ثم يتقدم لإلقائها ، وقد تحصن بذلك التحضير فإذا صارت له الخطابة ملكة وعدّ فى صفوف الخطباء ، اكتفى بدراسة الموضوع دراسة وافية ، ثم كتب العناصر ، أو لم يكتبها إن أسعفته ذاكرة قوية ، أو كانت الخطبة قصيرة ، لا عناصر لها ، وألقى الخطبة مكتفيًا بذلك التحضير الذى لا يكتفى به إلا أعظم الخطباء قدرة[1] .

(١) أبو زهرة : الخطابة ١٤٢ .

obeikandl.com

سلبيات ينبغى تجنبها فى خطبة الجمعة

وهناك أمور تحدث فى بعض خطب الجمعة فى بعض المساجد فى بلاد المسلمين جدير بكل خطيب أن يتجنبها وأن ينصح غيره بالكف عنها ومن هذه الأمور :

١ – الإطالة فى الخطبة :

وهذا عيب يجب على الخطباء أن يجتنبوه ، لأنه يؤدى إلى تنفير المصلين وضيقهم ، إن أكثر الخطباء – هداهم الله – يقفون على المنبر قرابة ساعة من الزمن ، يتحدث فى أمور مكررة وقضايا متشعبة يخرج من موضوع ليدخل فى موضوع آخر دون أن يرحم الشيخ الطاعن فى السن أو المريض الذى برح به الألم لمرض ألم به ، ومنهم الذى لا يستطيع أن يحتفظ بوضوئه فيقع فى حرج شديد خصوصًا إذا كان المسجد مزدحمًا ، وأماكن الوضوء ليست قريبة ميسرة للمتطهرين .

إن كثرة الكلام والتشدق بالألفاظ شهوة تفسد الهدف من الخطبة ويذهب معها الإخلاص ، وكأن الخطيب يريد أن يظهر للسامعين مقدرته الكلامية ، وعباراته البليغة الأدبية ، ناسيًا أن الإطالة فى الخطبة باعثة على السآمة والملل وربما الضجر والضيق من الخطيب والخطبة .

وليكن يا أخى قدوتك رسول الله ﷺ الذى أوتى جوامع الكلم وكان أفصح من تكلم بلغة العرب ، ومع ذلك كانت خطبته قصيرة لا يطيل فيها مخافة سآمة الناس وضجرهم .

ومما يؤلم النفس – حقًّا – أن يرى الخطيب المصلين يجلسون فى الحر الشديد أو البرد القارس ، وقد يكون المطر يتساقط عليهم ومع ذلك يطيل فى الخطبة ويحلو له الكلام ، ويترك لفكره العنان ، وكأن الناس لا يتعرضون لشىء !!

إن فى إطالة الخطبة سلبيات كثيرة يجدر بالخطباء أن يفقهوها ويكفى الإطالة عيبًا أنها على خلاف السنة وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ .

٢ – الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والقصص الخرافية :

ومن سلبيات الخطبة أن تعتمد على الأخبار الواهية والأحاديث الموضوعة والقصص الكاذبة والحكايات الخرافية الباطلة التى تهيج شجون البطالين ، وتنعش العوام والجاهلين ، فتكثر الآهات فى جنبات المسجد فيسر بذلك الخطيب ويظن أنه قد بلغ الغاية فى الفصاحة ، وكأن علامات النجاح تحريك الساكن للمصلين ورفع أصواتهم بما يدل على الرضا والاستحسان ، وما درى هؤلاء الخطباء ، أن فى الصحيح من الأخبار غُنية عن الموضوع والضعيف .

إن القرآن الكريم والسنة الصحيحة كلاهما ملىء بالقصص الحق والحكايات الصادقة الهادفة فكيف يغفل خطيب عنها إلى غيرها من الباطل والمكذوب رغبة فى إرضاء العوام ؟ !

إن هذا القصص يولد التناقض بين المصلين فمنهم من يصدق ، ومنهم من يكذّب أو يتوقف، مما يؤدى للإختلاف والتنازع فتختلف القلوب .

ومن الخير أن يقوى الخطيب صلته بالكتب التى يتحرى أصحابها البعد عن الأخبار الضعيفة أمثال كتاب « رياض الصالحين » للنووى وقبل ذلك وبعده صحيحى البخارى ومسلم .

وأعتقد أن علماء الحديث فى الأزهر المعمور وغيرهم من تلاميذهم فى العالم الإسلامى لهم دور لا ينكر فى تنقية السنة وتطهيرها مما دخلها من الوضع والتحريف وبيان الصحيح من الضعيف .

ومما يحزن النفس أن تستمع إلى خطيب وتبحث عن حديث صحيح فى خطبته كلها فلا تجده أو تراه يذكر حديثا ويستنبط منه أحكامًا غريبة يفسق بها من يفسق ويحرم ما يحرم والحديث كله موضوع مكذوب!!

٣ – اللحن فى اللغة :

ومما يعيب الخطيب– حقًّا أن يقع فى الأخطاء النحوية فيرفع المنصوب، وينصب المجرور مما يبعث على الضيق والازدراء لهذا الخطيب عند العلماء وطلاب العلم ، فعلى الخطباء أن يحرصوا على أن تكون عباراتهم صحيحة ولغتهم سليمة يراعون أحكام اللغة فى خطبهم .

ومن الخير أن يكون للخطيب كتاب فى اللغة يرجع إليه بين حين وآخر ليتذكر أحكامها ويعرف قواعدها وذلك مثل كتاب « قطر الندى وبلّ الصدى » لابن هشام ، أو كتاب « شرح ابن عقيل » الذى يدرس – الآن – لطلاب المرحلة الثانوية فى المعاهد الأزهرية ، ولا ضير أن يراجع الخطيب قواعد اللغة على عالم متخصص ويقرأ عليه بعض

النصوص العربية حتى يستقيم لسانه ويتعود على النطق الصحيح ، فلا يقع فى الأخطاء التى تعرضه لكثير من الانتقاد .

٤ – الكلام باللغة العامية :

ومن سلبيات الخطبة أن يتحدث الخطيب باللغة العامية لأن اللغة العامية لها لهجات متعددة ولكل منطقة من الوطن العربى لهجتها الخاصة بها فلا يفهم الحضرى لهجة البدوى ، ولا يفهم المصرى لهجة العراقى والأردنى – مثلاً – والأسلوب السليم ليفهم هؤلاء الخطبة أن تكون باللغة العربية الفصيحة .

ومن هنا يصبح الحديث باللهجات العامية مشكلة تحول دون فهم الخطبة ووسيلة من وسائل التعقيد والإغلاق وليست وسيلة للتسهيل على السامعين كما يظن بعض الخطبـــاء والواقع يدفع ظنهم ويدحضه .

٥ – سوء الإلقاء فى الخطبة :

وعلى الخطيب أن يتجنب السرعة فى إلقاء الخطبة ، أو خفض الصوت عند الإلقاء بحيث يصعب سماعه ، أو رفعه إلى درجة تزعج السامعين ، وعلى الخطيب أن يراعى مخارج الحروف عند الإلقاء فيخرج كل حرف من مخرجه ، ويقف عند كل جملة تتم بها المعنى ، وليحذر من المبالغة فى الحركات والإشارات والمواقف التمثيلية المتكلفة لأن ذلك مما يسىء إلى الخطيب ويزهد فى خطبته .

٦ – السطحية فى تناول القضايا :

ويتمثل ذلك فى اختيار الموضوعات التافهة التى لا تهم المصلين ولا تتصل بحياتهم ومشاكلهم اتصالاً وثيقًا .

إن الخطيب الناجح هو الذى يختار موضوعًا من موضوعات الساعة المصيرية، ويحسن إعداده ودراسته دراسة كافية، تبعث على احترام السامعين .

أما الخطباء الذين يختارون موضوعاتهم يوم الجمعة أو قبل الخطبة بقليل ثم يصعدون المنبر بدون إعداد مسبق فيتحدثون فى كل شىء خطر على بالهم ، وعنّ لفكرهم فهؤلاء يسيئون لأنفسهم ورسالتهم .

٧ – تقليد الخطباء المشهورين :

من سلبيات الخطابة التى يقع فيها بعض الخطباء تقليدهم لخطيب مشهور ، فتراه يحفظ عباراته وكلماته ويحاكى نبراته وحركاته ، وهذا عمل مستهجن مرذول ينبغى أن ينأى عنه الخطيب احترامًا لنفسه ، وحرصا على ذاتيته وشخصيته .

من الخطباء من يبدأ خطبته مقلدًا ذلك الخطيب المشهور بألفاظه ولهجته ثم يكمل الخطبة بأفكاره ولغته هو فيلاحظ المصلون الفرق الشاسع والبون البعيد بين الفكرين وبين الأسلوبين .

فليحذر الخطيب تقليد غيره ولتكن له شخصية مستقلة فى الخطابة لها أسلوبها وأفكارها .

٨ – مدح أهل الباطل والدفاع عنهم :

ومن السلبيات التى يقع فيها بعض الخطباء أن يضيعوا جزءًا من خطبتهم فى مدح الحكام الظلمة والتزلف إليهم وتبرير أخطائهم وتسويغها للجماهير ، فليعلم الخطباء أن الثناء والمدح للسلاطين نقص

فى حقهم يجعل المصلين يتهمونهم بالنفاق فتسقط هيبتهم فى نفوس الناس .

إن الواجب على الخطيب أن يقف للمنكر بالمرصاد يحاربه وينبه الناس على خطره وخطورته ، ويكون صوته – دائمًا – يجلجل فى وجه الظلمة والمفسدين .

فكيف لا يكتفي خطيب بسكوته عن الظلم وأهله – والساكت عن الحق شيطان أخرس – ويأخذ بعد ذلك فى مدح الباطل وكيل الثناء لطواغيته من أجل طمع دنيوى أو مصلحة شخصية فيبيع دينه بعرض قليل من الدنيا ؟

فليحذر الخطيب رذيلة المدح والنفاق ، وليعلم أن كل كلمة ينطق بها محسوبة له أو عليه فلا يسقط فى حمأة النفاق والمنافقين .

٩ – تجريح الناس وتفسيقهم :

من السلبيات التى يقع فيها بعض الخطباء التعرض لأشخاص بأعيانهم ، والنيل منهم بطريقة نابية تشمئز منها النفوس ، وتنفر منها الطباع السليمة والأذواق الرفيعة .

إن التعرض لأعراض الناس ونهشها على المنابر أمرٌ يكرهه الإسلام ، وشجاعة الخطيب ووقوفه أمام المنكر لا يعنى البذاءة وطول اللسان .

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس سوطًا يلهب ظهور المصلين ولكنه رحمة وهداية تأخذ بيد العباد إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم .

فالوعظ يجب أن يكون بأسلوب كله أدب وخلق ، ولقد كان رسول الله ﷺ إذا رأى شيئًا يكرهه يقول : ما بال أقوام يفعلون كذا أو يقولون كذا ، دون أن يذكر أحدًا بشخصه فيسبب له الحرج والضيق أمام المصلين.

١٠ – الحديث عن جانب واحد من الإسلام :

بعض الخطباء يركز فى خطبته على جانب واحد من جوانب الإسلام المتعددة ، فبعضهم يتكلم دائمًا عن الرقائق والموضوعات الروحية ، وبعضهم يتحدث عن الموضوعات الفكرية والثقافية ، وبعضهم لا يتكلم إلا فى العقيدة بحجة أن عقائد الناس قد فسدت وتحتاج إلى تغيير وإصلاح ، وبعضهم لا يتحدث إلا فى الجانب الأخلاقى فى الإسلام مثل الرحمة والصبر والتواضع ، واقتصار الخطيب على جانب واحد من تلك الجوانب التى بيناها يدل على فشل الخطيب وعدم فقهه فى الدعوة ، لأن الإسلام كل لا يتجزأ والإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، فيجب على خطيب الجمعة أن يعطى كل جانب حظه من الحديث والبيان بحيث يستوعب جوانب الإسلام المختلفة فينشأ عند السامعين فهم سديد متكامل بالإسلام كما أنزله الله وجاء به محمد ﷺ .

الجهاد فى سبيل الله
وسيلة من وسائل الدعوة

أولا : فضل الجهاد فى سبيل الله :

١ – قال الله تعالى :﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا ،بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (١).

والمعنى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا﴾ أى لا تظن الذين استشهدوا فى سبيل الله لإعلاء دينه أمواتًا لا يحسون ولا يتنعمون ﴿ بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ أى بل هم أحياء متنعمون فى جنان الخلد يرزقون من نعيمها غدوًّا وعشيًّا قال الواحدى : الأصح فى حياة الشهداء ما روى عن النبى ﷺ من أنّ أرواحهم فى أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أى هم منعمون فى الجنة فرحين ، بما هم فيه من النعمة والغبطة ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ أى يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يموتوا فى الجهاد بما سيكونون عليه بعد الموت إن استشهدوا فهم لذلك فرحون

---

(١) آل عمران الآيتان ١٦٩ و١٧٠ .

مستبشرون ﴿ألآخوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ أى بأن لاخوف عليهم فى الآخرة ولاهم يحزنون على مفارقة الدنيا لأنهم فى جنات النعيم[١].

٢ – وقال رسول الله ﷺ : « غدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »[٢] .

٣ – وقال : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة »[٣] .

٤ – وقال ﷺ : « من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار»[٤].

٥ – وقال ﷺ : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها »[٥] .

٦ – وقال ﷺ : « حَرُمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله وحَرُمت النار على عين سَهِرت فى سبيل الله»[٦] .

---

(١) صفوة التفاسير ٢٤٤/١ .
(٢) أخرجه البخارى ومسلم والنسائى والدرامى فى « سننه » ٢٠٢/٢ .
(٣) أخرجه البخارى وأحمد .
(٤) أخرجه البخارى ٣٢٥/٢ . والترمذى .
(٥) أخرجه البخارى .
(٦) رواه أحمد ١٣٤/٤ والدارمى ٣٠٣/٢ والنسائى ١٥/٦ .

٧- وقال ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد فى سبيل الله ، والمُكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف »[١] .

٨- وقال : « والذى نفسى بيده لا يُكْلَمُ أى - يجرح - أحد فى سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم فى سبيله - إلا جاء يوم القيامة اللون لونُ الدم ، والريح ريح المسك »[٢] .

١٠- وقال لجابر « ألا أخبرك ما قال الله لأبيك ؟ » قال :بلى ، قال : « ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب ، وكلم أباك كفاحًا ، فقال : يا عبدى تمنّ علَّى أُعْطِكَ ، قال :يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية قال : إنه سبق منى ﴿أنهم إليها لا يرجعون﴾ قال :يارب فأبلغ مَنْ ورائى ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون ﴾[٣] .

١١- وقال : لما أصيب إخوانكم ، بأحدٍ جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضرٍ ، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم ، قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله : أنا أبلغهم عنكم

---

(١) رواه احمد ٢٥١/٢ والترمذى ١٦٥ والنسائى ٦١/٦ وابن ماجة (٢٥١٨) وصححه ابن حبان (١٦٥٣) والحاكم ٢١٧/٢ ووافقه الذهبى .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٧٦) والترمذى (١٧٦١) والنسائى ٣٦/٦ ورواه النسائى ٣٥/٦ ، ٣٦ .

(٣) آل عمران : ١٦٩ .

فأنزل الله على رسوله هذه الآيات : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا »[1] .

ثانيا – مراحل تشريع الجهاد فى سبيل الله :

مرّ الجهاد فى سبيل الله بأربع مراحل نذكرها كما يلى :

الأولى : مرحلة الإعداد والتربية :

وهى المرحلة التى لم يكن فيها للرسول ﷺ سلطان مادى وكان المشركون يؤذون النبى ﷺ وأصحابه دون أن يأمر برد العدوان والإيذاء ، وكان يقول لأصحابه : اصبروا لأنى لم أومر بقتال :

وقد تفنن المشركون فى الإيذاء حتى قتل بعض أصحاب الرسول ﷺ من شدة العذاب ، منهم : سمية أم عمار بن ياسر التى عذبها آل المغيرة مع زوجها على إسلامهما ليرجعا عنه فلم يرجعا ، وماتت أم عمار تحت العذاب .

واستمر المشركون فى الإيذاء وأجمعوا أمرهم على قتل النبى ﷺ فلما علم الرسول بذلك هاجر إلى المدينة التى استقبله أهلها بالبشر والترحاب وبايعوه على الإسلام .

وقد كان أسلوب الدعوة فى هذه المرحلة يقتصر على جهاد الكفار بدعوتهم إلى الله سبحانه ، وبيان فساد ما هم عليه من العقائد والأخلاق ، والمناهج ، وغير ذلك .

---

(١) أخرجه أحمد ٢٦٦/١ وأبو داود ٢٥٢٠ وصححه الحاكم ٢٩٧/٢ ووافقه الذهبى وهو كما قال .

ويصور مدى ما وصل إليه أذى المشركين للمؤمنين فى هذه المرحلة ، ومبلغ صبر المؤمنين على الأذى ، حديث خباب بن الأرت – رضى الله عنه – قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ، فقال « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله ليُتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون »[1] .

المرحلة الثانية : الإذن بالقتال :

قال ابن القيم : فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة وأيده الله بنصره ، بعباده المؤمنين الأنصار ، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التى كانت بينهم فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر وبذلوا نفوسهم دونه وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج ، وكان أولى بهم من أنفسهم ، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب ، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح ، حتى قويت الشوكة واشتد الجناح فأذن لهم حينئذ فى القتال ولم يفرضه عليهم ، فقال تعالى :

---

(١) البخارى وأبو داود والنسائى وأحمد .

﴿ أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾[1] .

روى الحاكم فى « مستدركه » من حديث الأعمش عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون لَيَهْلِكُنَّ فأنزل الله عز وجل ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ وهى أول آية نزلت فى القتال[2] وهكذا يتبين لنا أن الجهاد فى هذه المرحلة لم يكن فرضًا كما يفهم من قوله (أذن) فالإذن يدل على الإباحة ومعنى ذلك أن الله تعالى جعل أمر الدفاع عن النفس متروكا لقدرة المسلمين واستطاعتهم فى هذه المرحلة حتى يتكامل الإعداد .

المرحلة الثالثة : الأمر بقتال المعتدين فقط دون غيرهم من المشركين

فى هذه المرحلة أمر الله بجهاد المشركين المعتدين دون من لم يصدر منه اعتداء تضييقًا لدائرة القتال رفقًا بالمسلمين ، ويشير إلى هذه المرحلة قول الله تعالى : ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[3] .

المرحلة الرابعة : الأمر بقتال المشركين كافة .

وكان ذلك فى آخر مراحل الجهاد فى حياة الرسول ﷺ ، بعد فتح مكة ، قال الله تعالى ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين

---

(١) زاد المعاد ٣/٧٠ والآية من سورة الحج : ٣٩ .

(٢) المستدرك » ٢/٦٦ ، وصححه على شرط ا لشيخين ، ووافقه الذهبى ، وأخرجه ابن جرير الطبرى وأحمد ١/٢١٦ والترمذى ٣١٧٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾[1] .

وأكد ﷺ ما جاء به القرآن فى ذلك فقال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[2] .

قال الرازى : « فإن قيل : ما السبب فى أن الله تعالى أمر أولا بقتال من يقاتل .

ثم فى آخر الأمر أذن فى قتالهم سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا ؟قلنا :لأن فى أول الأمر كان المسلمون قليلين ، فكان الصلاح استعمال الرفق واللين والمجاملة . فلما قوى الإسلام وكثر الجمع ، وأقام من أقام منهم على الشرك بعد ظهور المعجزات ، وتكررها عليهم حالاً بعد حال حصل اليأس من إسلامهم، فلاجرم أمر الله بقتالهم على الإطلاق»[3] .

هذه هى المراحل التى مرّ بها الجهاد على عهد رسول الله ﷺ ، ومنه يتضح أن قتال عموم المشركين هو الحالة الأخيرة التى استقر عليها ، هذا من الناحية العملية فى العصور الذهبية للإسلام ، وقبل

---

(١) سورة التوبة : الآية ٥ .
(٢) فتح البارى ١/٧٥ .
(٣) الفخر الرازى ٥/١٤١ .

أن يصاب المسلمون بالضعف والهوان نتيجة لبعدهم عن دينهم وتهاونهم فى العمل بشريعة الله التى تكفل لأصحابها العزة والقوة والسعادة .

ولما كان هذا حال المسلمين اليوم من الضعف وعدم التمكين فعليهم أن يأخذوا بأسباب القوة والمنعة ويجمعوا بين القوة المعنوية من تربية وتهذيب للنفس والقوة المادية التى أمرنا الله سبحانه بها فى قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1] .

أليس من المؤسف حقا أن يعيش المسلمون عالة على أعدائهم فى السلاح والعتاد ، فهل يعقل أن يستورد المسلمون من أعدائهم سلاحًا ليقاتلوهم به ؟

إن الجهاد ضرورى لبقاء المسلمين أمة قوية مرهوبة الجانب ، كما أن تركه سبب فى المذلة والهوان وضياع الديار وتسلط الكفار على دار الإسلام .

يقول الإمام ابن تيمية :

وقوله تعالى :﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ﴾[2] .

قد يكون العذاب من عنده ، وقد يكون بأيدى العباد ، فإذا ترك الناس الجهاد فى سبيل الله ، فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى

---

(١) الأنفال : الآية ٦٠ .

(٢) سورة التوبة ٣٩ .

تقع بينهم الفتنة ، كما هو الواقع ، فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم وألف بينهم وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم ، وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض[1] .

ثالثًا : أسباب النصر :

أرشد القرآن الكريم إلى أسباب النصر الذى يرد العدوان ويكافح الظلم والطغيان .. من هذه الأسباب :

١ – أن يقصد بالجهاد وجه الله عز وجل ، ويراد به نصرة دين الله وعباده المؤمنين . وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[2]. وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[3].

وقال – أيضًا – ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفًا ﴾ .

والقتال في سبيل الله هو الذى يكون لنصرة الإسلام وإعلاء كلمته بين العالمين ، بعيدًا عن البطر والبغى والظلم والعدوان .

وقد جاء في السنة الصحيحة ما يوضح أهمية الإخلاص في الجهاد وذلك لما سئل النبى ﷺ :

---

(١) الفتاوى ١٥/٤٤ – ٤٥ .
(٢) سورة الحج ٤٠ .
(٣) سورة محمد ﷺ آية ٧ .

«الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرَى مكانه».

وفى رواية : « ما القتال فى سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا ، ويقاتل حمية » ؟ .

وفى أخرى : « الرجل يقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل رياء ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ » .

قال ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عز وجل»[1].

٢ – التوكل على الله سبحانه والاعتماد عليه وحده والاعتصام به جل شأنه .

قال الله تعالى : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ، إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[3].

---

(١) البخارى ومسلم .
(٢) آل عمران ١٥٩/١٦٠ .
(٣) آل عمران : الآية ١٧٣ .

ويقول تعالى – حكاية عن رسله عليهم الصلاة والسلام :

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[1].

ويقول جل شأنه : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرًا ﴾[2] .

٣– تقوى الله عز وجل : يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[3] .

ويقول سبحانه : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[4] .

ويقول تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[5].

٤– الصبر : يقول فضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت : « والصبر قوة إيجابية بها يكافح المؤمن عوامل الضعف والهلع ، وبها يواصل السير بخطوات واسعة قوية فى إزالة ما يعترضه من عقبات ، أما المصابرة

---

(١) سورة إبراهيم آية ١٢ .
(٢) سورة الطلاق آية ٣ .
(٣) سورة النحل آية ١٢٨ .
(٤) سورة التوبة آية ٣٦ .
(٥) سورة التوبة آية ١٢٣ .

فهى مغالبة الشدائد التى تقع بينك وبين غيرك إلى أن تخر صريعًا فى صفوف القتال فى كفاح الظلم والمنكر .

يقول الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[1] .

المرابطة :

هو الوقوف بإيمان وحزم أمام منافذ الشر والعمل على إحكام صدها ، فالعتاد الحربى فى الثغور ومداخل الأعداء وتدريب أبناء الأمة على الجهاد وعلى الرمى ، وكبح جماح النفوس عن محرمات الأعراض والأموال ، والتسلح بالعلم النافع والخلق الفاضل والمال المشروع ، كل ذلك مرابطة ، ومرابطة فى سبيل الله .

وإذا رابط الإنسان للشر من جميع نواحيه أمن الوقوع فيه ، وتفرغ للسير فى طريق الكمال .

فالصبر والمصابرة علاج للشدائد النازلة ، والمرابطة وقاية من الشدائد المترقبة ، وبذلك يسلم حاضر الحيـاة ومستقبلها وتسير قدمًا إلى الأمام[2] .

٥ – الاتجاه إلى الله عز وجل وبالأخص عند ملاقاة العدو، طلبًا للنصر.

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٠٠ .

(٢) من توجيهات الإسلام ٢٧٢ – ٢٧٧ .

يقول الله سبحانه : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون ﴾[1] .

ويقول جل شأنه : ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾[2] .

ويقول الله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنّى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾[3] .

٦ – إعداد القوة المادية : قال الله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[4] .

والقوة تتسع لكل ما عرف ويعرف من آلات الحرب برية وبحرية وجوية ، والرباط كلمة تتسع لكل ما عرف ويعرف فى تحصين الثغور وصد الأعداء وقوى الدفاع الظاهرة والكامنة ويعلن فى الآية أن فائدة هذا الإعداد العام الشامل ، ليست هى النصر فى المواقع الحربية فقط ، وإنما هى من قبل وسيلة لإقرار الحق ، ومنع الأعداء من التفكير فى زلزلته والطغيان به ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ .

ومن هذا الجانب تكون القوة المادية عاملا من عوامل السلم تحفظ الحقوق، وتقيها شر الاعتداء وتنشر على العالم ظلال الأمن والاستقرار[5].

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٦ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٥٠ .
(٣) سورة الأنفال آية ٩ .
(٤) سورة الأنفال آية ٦٠ .
(٥) الشيخ محمود شلتوت : من توجيهات الإسلام ٢٣٩ .

٧- التنظيم الحربى : وكما أرشد القرآن إلى القوة المادية فى عدتها وعددها أرشد كذلك إلى جملة من وجوه التنظيم الحربى التى تجب على المحاربين مراعاتها والتمسك بها إذا ما نشبت المعركة واشتبك الجمعان وخص منها بالذكر ما كان يفعله الرسول ويوصى به فى الأعمال التمهيدية للغزو ، ومن ذلك :

- توزيع وحدات الجيش على مواضع الدفاع ، وفى ذلك يقول : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾[١] .

- والسمع والطاعة للقيادة . وفى ذلك يقول : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[٢] .

وقد ذكرهم بأن سبب فشلهم فى غزوة أحد يرجع إلى المخالفة والتنازع ﴿ ولقد صدقكُمُ الله وعده إذ تحسُّونَهُم بإذنه حتى إذا فشِلْتُم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾[٣] .

- والثبات فى الموقف ، فيه يقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يُوَلِّهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾[٤] .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢١ .
(٢) سورة الأنفال آية ٤٦ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٥٢ .
(٤) سورة الأنفال آية ١٥ .

وترتيب الهجوم عند تعدد الأعداء على أن يؤخذ الأقرب بالأقرب حتى لا يتعرض الجيش لحركات التفافية من الأعداء وفيها : ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذى يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[1] .

٨- اليقظة الدائمة وأخذ الحيطة والحذر من مكائد العدو وغدره ومباغتته ومكره يقول الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا ﴾[2].

ويقول الله تعالى : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مَطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابًا مهينًا ﴾[3] .

٩- الحذر من التنازع والاختلاف : قال الله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[4] .

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٣ .
(٢) سورة النساء آية ٧١ .
(٣) سورة النساء آية ١٠٢.
(٤) سورة الأنفال آية ٤٦ .

١٠ – وضع القيادة فى الأيدى الحكيمة العاقلة : لأن القائد الطائش يصدر من القرارات ويتخذ من الإجراءات ما يكون سببًا فى هلاك الأمة وضياع الملة ، وكم جنت أمتنا من الويلات والكوارث نتيجة لرعونة قادتها ، وعدم حكمتهم ، وقصر نظرهم ، فدخلت الأمة الإسلامية فى حروب اكتوت بنارها ولا ناقة لنا فيها ولا جمل ، ولكنه الغرور والنزق الذى جعلهم سببًا فى خراب أممهم وشقاء شعوبهم .

١١ – الالتزام بمبدأ الشورى وعدم استبداد القائد : قال الله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿وشاورهم فى الأمر﴾[١] .

وإذا كان الرسول ﷺ وهو أكمل الناس عقلاً وأرجحهم رأيًا يأمره ربه بمشاورة أصحابه ، فلا ريب أن غيره أولى وأحوج إلى المشورة والنصح ، قال الإمام البخارى : (وكانت الأئمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم .. وكان القراء أصحاب مشورة عمر ، كهولاً كانوا أو شُبَّانًا)[٢] .

رابعًا : أسلحة ربانية يمد الله بها المؤمنين :

(أ) الملائكة .
(ب) الرعب .
(جـ) النعاس .
(د) الريح .
(هـ) المطر .
(و) التخيل .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .
(٢) ذكره الإمام البخارى تعليقا فى كتاب الاعتصام ١٣٨/٩ وانظر فتح البارى ٣٣٩/١٣ – ٣٤٤ .

(أ) الملائكة :

إن إمداد الله للمؤمنين بالملائكة فى الجهاد إذا لزم الأمر ثابت فى الآيات القرآنية كما هو ثابت فى الأحاديث النبوية ، قال تعالى : ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾[1].

وقال ﷺ فيما رواه ابن عباس يوم بدر : « هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب »[2] .

« وهذا الإمداد ممدود غير محدود بزمان أو مكان ، فكلما استوفى المؤمنون شروط إمدادهم بالملائكة أمدهم الله بها ، وشروط الإمداد بالملائكة هى الصبر والتقوى ، وإتيان المشركين لمحاربة المؤمنين بصورة فيها من الكبر والتيه والغطرسة ما يجعلهم أهلاً لبطش الملائكة بهم .

قال تعالى مشيرًا إلى أن المدد بالملائكة ممدود غير محدود ، بشروط معينة : ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾[3].

(ب) الرعب :

قال الله تعالى : ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾[4].

---

(١) سورة الأنفال آية ٩ .
(٢) البخارى : فتح البارى ٣١٥/٨ .
(٣) د/ الحسينى أبو فرحة : الفتوحات الربانية ٩٧/١ والآية من سورة آل عمران ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٥١.

فهذه الآية الكريمة تبين أن الرعب سلاح ربانى يلقيه فى قلوب أعدائه ، ولا ريب أنه من أفتك الأسلحة التى تقضى على الجيوش معنويا وتصيبها بالإحباط فتحيق بها الهزيمة والخذلان .

والتخويف سلاح استخدم قديمًا ، وما زال يستخدم حديثًا ويدخل الآن فيما يعرف بالحرب النفسية ونحن نشاهد ونقرأ كيف تتفنن الدول بالوسائل المختلفة لبث الرعب والتخويف فى نفوس أعدائها[1] .

وقد بين الرسول ﷺ أن الرعب سلاح أعطاه الله له لينتصر به على أعدائه من الكافرين ، فقال ﷺ : « أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »[2] .

فكان ﷺ إذا تجهز لقوم بينه وبينهم مسيرة شهر وعلموا بمقدمه فروا منه بسبب ما يقذفه الله فى قلوبهم من الرعب .

(جـ) النعاس :

من الأسلحة المعنوية التى أمدّ الله بها المؤمنين النعاس يلقيه عليهم ليهدىء أعصابهم ويطمئن قلوبهم إذا نزل بهم ما يخيفهم .

---

(١) راجع ما كتبه فى ذلك صلاح نصر فى كتابه : الحرب النفسية الكلمة والمعتقد ، نشر دار القاهرة للطباعة والنشر .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

قال الله تعالى ممتنًّا على المؤمنين بذلك : ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾[1] كما قال تعالى : ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاسًا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾[2].

فالآية الأولى تشير إلى النعاس يوم بدر ، والثانية تشير إلى النعاس يوم أحد عن أبى طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفى من يدى مرارًا يسقط وآخذه ويسقط وآخذه »[3] .

هذا والنعاس آية اطمئنان قلوب صحابة رسول الله ﷺ وحسن توكلهم على ربهم ، وثقتهم فى نصر الله لهم وتأييده إياهم ، لأن الخائف القلق لا يغمض له جفن ولا يذوق لذة النوم الذى يرفع من الروح المعنوية فيكون سببًا فى نصر الله سبحانه .

(د) الريح :

يقول الله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرًا﴾[4] .

يمتن الله على عباده فى هذه الآية الكريمة أن صرف عنهم أعداءهم وهزمهم ، وذلك بسبب الريح حيث أرسل الله – عز وجل – على

---

(١) سورة الأنفال الآية١١ .
(٢) سورة آل عمران آية١٥٤ .
(٣) فتح البارى ٣٦٧/٨ .
(٤) سورة الأحزاب الآية ٩ .

الأحزاب الذين جاءوا لقتال المسلمين ريحًا شديدة قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار ، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين[1] .

وبذلك كان للريح دور يذكر ولا ينكر فى نصرة المسلمين يوم الأحزاب فالريح جند من جنود الرحمن يسلطها على من يشاء من عباده انتقامًا منهم وغضبًا عليهم ﴿ وما يعلَم جنود ربك إلا هو﴾ . وقد قال ﷺ مبينًا دور الريح فى نصرة الدعوة الإسلامية : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور »[2] .

وقد جاء فى حديث حذيفة تفصيل ما أجملته الآية من أثر الريح فى نصرة المسلمين .

أخرج الحاكم والبيهقى فى الدلائل عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة قال : ذكر حذيفة رضى الله عنه مشاهدهم مع رسول الله ﷺ ، فقال جلساؤه : أما والله لو شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا ، فقال حذيفة : لا تمنوا ذلك لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ، نحن صافون قعودًا وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة واليهود أسفل منا ، نخافهم على ذرارينا وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحًا فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهى ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبى ﷺ ويقولون : ﴿إن بيوتنا عورة وما هى بعورة﴾ فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم فيتسللون ونحن

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٨٤/٣ (بتصرف) .
(٢) البخارى ومسلم .

ثلثمائة أو نحو ذلك إذا استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى على وما على جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتى ما يجاوز ركبتى قال فأتانى ﷺ ، وأنا جاث على ركبتى فقال : « من هذا » ؟ فقلت : حذيفة ، قال : « حذيفة » ؟ فتقاصرت الأرض فقلت : بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم فقمت ، فقال : « إنه كائن فى القوم خبر فأتنى بخبر القوم » قال : وأنا من أشد الناس فزعًا وأشدهم قرا ، قال : فخرجت فقال رسول الله ﷺ : « اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته ، قال : فوالله ما خلق الله تعالى فزعا ولا قرا فى جوفى إلا خرج من جوفى ، فما أجد فيه شيئًا ، قال فلما وليت قال ﷺ : «ياحذيفة لا تحدثن فى القوم شيئًا حتى تأتينى » قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد، فإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول: الرحيل الرحيل ولم أكن أعرف أباسفيان قبل ذلك، فانتزعت سهما من كنانتى أبيض الريش ، فأضعه فى كبد قوسى لأرميه به فى ضوء النار فذكرت قول رسول ﷺ : « لا تحدثنّ فيهم شيئًا حتى تأتينى » قال : فأمسكت ورددت سهمى إلى كنانتى ثم إنى شجعت نفسى حتى دخلت العسكر ، فإذا أدنى الناس منى بنوعامر يقولون : يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم ، وإذا الريح فى عسكرهم شبرًا ، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرشهم الريح تضربهم بها، ثم خرجت نحو النبى ﷺ فلما انتصفت فى الطريق ، أو نحوًا من ذلك إذا أنا بنحو عشرين فارسًا معتمين فقالوا : أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم ، فرجعت إلى

رسول الله ﷺ وهو مشتمل فى شملة يصلى فوالله ما عدا أن رجعت راجعنى القر وجعلت أقرقف ، فأومأ إلىّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلى فدنوت منه ، فأسبل علىّ شملة ، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم وأخبرته أنى تركتهم يرتحلون وأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرًا ﴾[1]

وهكذا سخر الله الريح لنصرة نبيه محمد ﷺ ، ولا يزال الريح والعواصف جند الله الذى يسلطه على من يشاء من عباده فى كل العصور والأزمنة ، وكم سمعنا ونقلت وكالات الأنباء أخبار أقوام ودول سلط الله عليهم الرياح والعواصف فكانت عقابًا يزلزل أركانهم ويقتلع بنيانهم وأشجارهم ولكن كثيرًا من الناس لا يدركون أنه عقاب من الله ، وأن الريح جندٌ من جند الله فيفسرونها تفسيرًا ماديًّا مقطوع الصلة عن الله – سبحانه – وسننه فى خلقه والواجب على المسلم أن يرد الأسباب إلى مسببها وأن يفسر الأحداث تفسيرًا إسلاميًّا سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

(هـ) المطر :

قال الله تعالى : ﴿ ويُنزل عليكم من السَّمَاء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾[2] .

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقى فى دلائل النبوة والحديث ورد فى مختصر ابن كثير ٣/ ٨٥ –٨٦.

(٢) سورة الأنفال آية ١١ .

فى هذه الآية الكريمة يتحدث المولى – سبحانه وتعالى – عن جند من جنود الله التى ينصر به عباده المؤمنين الصادقين ، إنه الماء ، الذى كان سببًا فى نصر الرسول وصحبه فى غزوة بدر ، عن ابن عباس قال : نزل النبى ﷺ – حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة وعصبة ، وأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبين ؟ فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ولقد كان ذلك قبل أن ينفذ رسول الله ﷺ ما أشار به الحباب بن المنذر من النزول على ماء بدر وتغوير ما وراءها من القليب .

« والمعروف أن رسول الله ﷺ لما صار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أى أول ماء وجده – فتقدم إليه الحباب ابن المنذر فقال يا رسول الله هذا المنزل الذى نزلته منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال : « بل منزل نزلته للحرب والمكيدة » فقال : يا رسول الله ، ليس بمنزل ، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلى القوم ونغوّر ما وراءه من القليب ونسقى الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء فسار رسول الله ﷺ ففعل ذلك »[1] .

ففى هذه الليلة – وقبل إنفاذ مشورة الحباب بن المنذر – كانت هذه الحالة التى يذكر الله بها العصبة التى شهدت بدرًا .. والمدد على

---

(١) تفسير ابن كثير .

هذا النحو مدد مزدوج : مادى وروحى . فالماء فى الصحراء مادة الحياة فضلاً عن أن يكون أداة النصر والجيش الذى يفقد الماء فى الصحراء يفقد أعصابه قبل أن يواجه المعركة ثم هذه الحالة النفسية التى صاحبت الموقف ووسوس بها الشيطان : حالة التحرج من أداة الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء (ولم يكن قد رخص لهم بعد فى التيمم فقد جاء هذا متأخرًا فىغزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة) وهنا تثور الهواجس والوساوس ويدخل الشيطان من باب الإيمان ليزيد حرج النفوس ووجل القلوب والنفوس التى تدخل المعركة فى مثل هذا الحرج وفى مثل هذا القلق تدخلها مزعزعة مهزومة من داخلها .. وهنا يجىء المدد وتجىء النجدة .

﴿ وينزِّلُ عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾ ويتم المدد الروحى بالمدد المادى ، وتسكن القلوب بوجود الماء ، وتطمئن الأرواح بالطهارة ، وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال[1] .

(و) **التخييل** :

يقول الله تعالى : ﴿إذ يريكَهُمُ الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيرًا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور﴾ .

﴿وإذ يُرِيكُمُوهُم إذ التقيتُم فى أعينكُم قليلاً ويقَلِّلكُمُ فى أعينهم ليقضىَ الله أمرًا كان مفعولا وإلى الله تُرجَعُ الأمور﴾[2] .

---

(١) فى ظلال القرآن ١٤٨٤/٣ . (٢) سورة الأنفال الآيتـان ٤٣ و٤٤ .

تبين هاتين الآيتان ما حدث للمسلمين يوم بدر من رحمة الله بهم ، ونصره إياهم ، وذلك عن طريق ما يمكن أن نسميه بالتخييل وهو اعتقاد المرء ما ليس بموجود – وهو من أهم الأسلحة النفسية فى الحرب ولقد كان من تدبير الله – سبحانه – فى معركة بدر أن يرى رسول الله ﷺ – الكافرين فى الرؤيا فى منامه قليلاً لا قوة لهم ولا وزن ، فينبىء أصحابه برؤياه ، فيستبشروا بها ويتشجعوا على خوض المعركة .. ثم يخبر الله هنا لِمَ أراهم لنبيه قليلاً فلقد علم – سبحانه – أنه لو أراهم له كثيرًا ، لفتّ ذلك فى قلوب القلة التى معه ، وقد خرجت على غير استعداد ولا توقع لقتال ولضعفوا عن لقاء عدوهم ، وتنازعوا فيما بينهم على ملاقاتهم : فريق يرى أن يقاتلهم وفريق يرى تجنب الالتحام بهم .

وهذا النزاع فى هذا الظرف هو أبأس ما يصيب جيشًا يواجه عدوًّا !

﴿ ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور﴾ .

ولقد كان سبحانه – يعلم بذات الصدور ، فلطف بالعصبة المسلمة أن يعرضها لما يعلمه من ضعفها فى ذلك الموقف فأرى نبيه المشركين فى رؤياه قليلاً ، ولم يرهم إياه كثيرًا[1] .

قال مجاهد : أراهم الله إياه فى منامه قليلاً ، وأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتًا لهم ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه : لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى تراهم سبعين ؟

---

(١) فى ظلال القرآن ١٥٢٦/٣ .

قال : لا ، بل هم مائـة ، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه فقـال : كنا ألفًا[1] .

وقد كان لتقليل العدد فى نظر الفريقين إغراء بالقتال بينهما ، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين ، بقى حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه ، كما قال تعالى : ﴿قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يَرَوْنهم مثليهم رأى العين﴾ .

وهكذا يؤدى سلاح التخييل دوره فى نصرة المؤمنين وهزيمة المشركين ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[2] .

خامسًا : آداب الحرب فى الإسلام[3] :

الأحكام التى أوجب الإسلام مراعاتها لتخفيف ويلات القتال من خير ما عرف من قوانين الرحمة بالإنسان . وهذه الأحكام وإن كانت تتفق مع أحكام القانون الدولى فى كثير من المواضع إلا أنها تخالفها من جهة أنها أحكام دينية شرعها الدين ويقوم بتنفيذها إيمان المسلمين وقوة يقينهم مثل سائر الأحكام الدينية : وأما أحكام القانون الدولى فإنها ليس لها قوة تنفيذية تكفل إمضاءها حتى إن بعض الباحثين يرى فى تسمية الأحكام الدولية قانونًا ضربًا من التسامح ، لأن القانون

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وابن جرير .

(٢) سورة يوسف آية ٢١ .

(٣) مراجعنا فى هذا المبحث :السياسة الشرعية للأستاذ عبد الوهاب خلاف ٨٥ وما بعدها وفقه الدعوة للدكتور جمعة الخولى ١٩٦ وما بعدها .

لا يكسب هذا الوصف إلا إذا كان من ورائه قوة لحمايته وتنفيذ أحكامه ، ولا توجد قوة ما لإخضاع الدول لأحكام القانون الدولى فالأحكام الإسلامية الحربية مع أنها ترمى إلى العدل والرحمة لها من إيمان المسلم قوة تنفيذية تكفل إمضاءها .

وعلى هذا الأساس شرعت الأحكام الحربيـة فى الإسـلام كما يأتى :

١ – قرر القانون الدولى أن الدول التى تضطر إلى إعلان الحرب على دولة أخرى يجب عليها قبل البدء أن تعلن الدولة الأخرى بميعاد الحرب وتعلن رعاياها وتخطر الدول الأخرى لتلزم حيادها والغرض من هذا الإعلان توقى الغدر والأخذ على غرة .

وجاء فى الشرع الإسلامى :إنه يجب على المسلمين قبل البدء بقتال الكافرين أن يبلغوهم دعوة الإسلام . فقد ثبت : أن النبى ﷺ ماقاتل قومًا حتى دعاهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم بهذا كان يأمر قواده ، ففى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال لبعض قواده : (إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم :الإسلام أو الجزية أو القتال .

٢ – قرر القانون الدولى : أن الرعايا غير المنتظمين فى الجيش لا يعدون أعداء ولا يجوز إلحاق الأذى بهم ، وإن وصف المحاربين خاص بكل جند أو جيش محارب .

ونصت الشريعة الإسلامية على أنه لا يجوز قتل النساء والصبيان والقسس فى كنائسهم والرهبـان فى صوامعهم ، والشيوخ الكبار

والزمنى والمرضى ومن اعتزل القتال أوحالت عاهته دون أن يكون من المقاتلة إلاّ إذا اشترك واحد من هؤلاء فى الحرب بقول أو فعل أو رأى .

ومن وصايا الرسول ﷺ : « لا تقتلوا شيخًا فانيا ولا صغيرًا ولا امرأة » .

وفى رواية أخرى لابن عباس : « لا تقتلوا أصحاب الصوامع » ، أى الرهبان .

ومن وصية أبى بكر الصديق لجيش أسامة : « وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

وشبيه بهذا وصية عمر بن الخطاب لأمراء الجيوش « ولا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات» .

٣ – منع القانون الدولى الإجهاز على الجرحى وتعذيب العدو ، والفتك به غيلة واستعمال القنابل والقذائف والأسلحة التى تزيد فى التعذيب ، وحرم تسميم الآبار والأنهار والأطعمة كما أنه أوصى أن تحترم جثث القتلى ومنع التمثيل بها مهما كانت جنسية أصحابها .

والإسلام حرّم هذا أيضًا فقد نهى رسول الله ﷺ عن الغدر وعن المثلة وقال لا تعذبوا عباد الله وجاء فى الشريعة الإسلامية النهى عن الإحراق بالنار لميت أوى ، وعن إفساد الثمار والزروع أو قطع الأشجار أو قتل الحيوانات أو إحراق الدور والأمتعة وعن كل إتلاف وإفساد بقدر الإمكان .

حتى إن الأعداء إذا مثلوا بالمسلمين فالأفضل عدم مجاراتهم فى هذا التمثيل ويدل على هذا ما روى : أنه لما مثل المشركون فى غزوة

أحد ، بحمزة بن عبد المطلب وغيره من الشهداء قال رسول الله : (لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب ، فأنزل الله عليه هذه الآيات :﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ [1]: فقال الرسول ﷺ « بل نصبر » .

وأوصى أبو بكر – أول خليفة للمسلمين – قائده أسامه بقوله : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ، ولا شيخًا كبيرًا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بعيرًا إلا للأكل .

٤ – قرر القانون الدولى قواعد فى حسن معاملة الأسرى وعدم مسهم بأذى : فلا يجوز قتلهم ولا جرحهم ، ولا إساءة معاملتهم ، أو تحقيرهم إذا سلموا أنفسهم أو صودرت حريتهم .

والشريعة الإسلامية حثت على تكريم الأسرى عامة فقد أثنى على المؤمنين الذين يحسنون إلى الأسرى بقوله : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا ﴾[2] .

وقع ثمامة بن أثال فى أيدى المسلمين فجاءوا به إلى النبى ﷺ فقال « أحسنوا إساره ، وقال : اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه » .

---

(١) سورة النحل : الآيتان ١٢٦ و١٢٧ .
(٢) سورة الإنسان الآيتان ٨ و٩

وكانوا يقدمون إليه لبن ناقة رسول الله ﷺ غدوا ورواحًا ، ودعاه النبى ﷺ إلى الإسلام فأبى ، وقال له ،إن ترد الفداء فسل ما شئت من المال ، فأطلق النبى سراحه من غير فداء . ثم دخل بعد ذلك فى الإسلام .

ولما وقعت ابنة حاتم الطائى فى أيدى المسلمين ، تعرضت للنبى ﷺ وقالت له : هلك الوالد ، وغاب الرافد – تعنى أخاها عديًّا – فامنن على منّ الله عليك .

فقال ﷺ فعلت ، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك » .

وأقامت حتى قدم رهط من قومها ، فخرجت معهم بعد أن كساها النبى ﷺ وأعطاها مالا .

وأمدّ صلاح الدين الأيوبى فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية أثناء مرضهما رغم ما لحق المسلمين من قتل وسحق على أيديهما .

٥ – ومن آداب الحرب فى الإسلام – أيضًا – عدم قتل رسول العدو ، أو مفاوضه .. ومن ذلك أنه عندما جاء ابن أثال ، وابن النواجة رسولا مسيلمة الكذاب إلى النبى ﷺ قال لهما أتشهدان أنّى رسول الله ؟ قالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ : آمنت بالله ورسوله ، لو كنت قاتلا رسولاً لقتلتكما .

٦ – يوجب الإسلام احترام المعاهدات ، والوفاء لمن بيننا وبينهم عهد ، فإن قامت الأدلة الوثيقة على عبث الطرف الثانى وأنه يريد

خيانتنا ، ويتهيأ للهجوم علينا ، لم يكن بدّ من نقض المعاهدة ، ولكنه لا يجوز لنا أن نهاجمهم أو نأخذهم على غرة ، بل لابد من أن نشعرهم بأن العهد الذى بيننا وبينهم قد انقضى ، قال تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾[1] . وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول لقائد الجيش« وقدم النذر بين يديك».

وإيجاب الإسلام إعلان الحرب قبل البدء بها حتى لا يؤخذ العدو على غرة مبدأ أخلاقى عظيم لم يستطع القانون الوضعى إقراره إلا فى مؤتمر لاهاى الذى انعقد سنة ١٩٠٧ ، فقد أوجب ألا تبدأ الأعمال الحربية إلا بعد إخطار سابق لا لبس فيه ، عن طريق إعلان ، أو إنذار يذكر فيه اعتبار الحرب قائمة بين الطرفين .

٧- الإسلام يجرد الجهاد فى سبيله من كل غاية دنيوية أو دوافع شخصية ليجعله خالصا لوجه الله الكريم . ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا ﴾[2] ..

ومن ثم فالإسلام ينفى من حسابه ابتداء أى حرب تقوم لتحقيق مطامع دولية ، أو أمجاد شخصية ، أو التى تقوم على استغلال الشعوب وأكل خيراتها ، أو التى تقوم على القهر والاستعباد وسيادة قوم على قوم ، ووطن على وطن .

---

(١) سورة الأنفال آية ٥٨ .

(٢) سورة النساء آية ٧٤ .

فالقتال فى الإسلام يجب أن يكون فى سبيل الله ، وهدفه – أولاً وآخرًا – إعلاء كلمة الله ، وسيادة سلطان الله فى الأرض ، حتى يتحقق للبشرية الخير والبركة والكرامة والعدل .

obeikandl.com